



ينظر الأوروبيون إلى المسلمين على أنهم متخلفون..

حسن العاصي 2022-09-24 -

"ليس عليك أو تكون وحشاً أو مجنوناً لتجريد الآخرين من إنسانيتهم. يلزم فقط أن تكون إنساناً عادياً" (عالم النفس البريطاني، أستاذ الفلسفة في جامعة نيو إنجلاند "ديفيد ليفنغستون سميث" Livingstone David عن Dehumanization and How to Resist "مقاومتها وكيفية الإنسانية الصفة نزع" كتابي صاحب Smith جامعة أكسفورد عام 2020، وكتابه العاشر "صنع الوحوش: القوة الخارقة لنزع الصفة الإنسانية" Making Monsters: The Uncanny Power of Dehumanization الصادر عن جامعة عام هارفارد 2021).

إن العلاقة بين نزع الصفة الإنسانية والعنصرية، وما يعنيه اعتبار الآخرين ليسوا بشراً، وكيف يتحول تجريد الآخرين من إنسانيتهم إلى شيء وحشي للغاية بحيث يجب تدميرهم، أمر يثير الصدمة والرعب. يعتقد البعض أن أعداءهم وحوش وبالتالي يسهل قتلهم - كما حصل في رواندا عام 1994 في مذبح الإبادة الجماعية بين قبيلتي الهوتو والتوتسي. إن تسمية شخص ما بالوحش، ليس مجرد ملجأ إلى الاستعارة - فالتجريد من الإنسانية يحدث بالفعل في أماكن كثيرة في هذا العالم القبيح.

الأغنام السوداء

خلال أزمة اللاجئين في عام 2015، تحدث بعض السياسيين الأوروبيون عن "أسراب" و"نفايات بشرية". وفي الحملة الرئاسية الأمريكية لعام 2016، تحدث الرئيس ترامب عن "انتشار مرض معدٍ ضخم عبر الحدود". وفي مناسبة لاحقة، وصف ابنه الجدار سيئ السمعة على طول الحدود المكسيكية بـ "سياج حديقة الحيوانات". المرشح المحتمل لرئاسة فرنسا اليميني المتطرف "إريك زمور" Zemmour Eric ذكر أن يرحب باللاجئين الأوكرانيين لأنهم "شعب أوروبي مسيحي، وأكثر قرباً للفرنسيين من أمواج المهاجرين من البلدان العربية المسلمة ودول الشرق الأوسط. في سويسرا قام "أولريخ شلوير" Schluer Ulrich المدير المسؤول عن صحيفة "الزمن السويسري" وأحد السياسيين البارزين في حزب الشعب بحملة "الأغنام السوداء" لمنع الهجرة. تصريح رئيس الوزراء المجري "فيكتور أوربان" Urban Viktor العنصري هذا العام الذي رفض المجتمع المتعدد، حيث قال "ننتقل إلى أماكن أخرى، نعمل في الخارج، نختلط داخل أوروبا. لكن لا نريد أن نكون عرقاً مختلطاً أو (شعباً) متعدد الإثنيات" يختلط مع "غير الأوروبيين".

المسلمون في مرتبة أدنى

أظهر اثنان من الباحثين الرائدتين في مجال علم النفس الاجتماعي هما "نور كتيلى" Kteily Nour (جامعة نورث وسترن) و"إميل برونو" Bruneau Emile (جامعة بنسلفانيا)، أن غالبية السكان في كل من الولايات المتحدة



وعدد من الدول الأوروبية يعلنون عن طيب خاطر أن مجموعات الأقليات العرقية والدينية المختلفة في بلدانهم هم "أقل تطوراً" من السكان العرقيين الأصليين. وهذا ينطبق بالتالي على اللاجئين المسلمين في أوروبا، وكذلك المكسيكيين، واللاتينيين، والمسلمين في الولايات المتحدة.

قام الباحثان عام 2019 بكشف تأثير التجريد الصارخ من الإنسانية للتعنؤ بالمواقف والسلوكيات السلبية للجماعة. فعملاً على فحص عملية نزع الصفة الإنسانية الصارخة عن اللاجئين المسلمين خلال "أزمة اللاجئين" خلال العامين 2015/2016 بين عينات كبيرة في أربع دول أوروبية: جمهورية التشيك، والمجر، وإسبانيا، واليونان. أشارت النتائج إلى أن تجريد اللاجئين المسلمين الصارخ من إنسانيتهم هو (أ) سائد بين الأوروبيين، و(ب) مرتبط بشكل فريد بالمواقف والسلوك المناهض للاجئين، بما يتجاوز الأيديولوجية السياسية، والتحيز، وذو صلة خاصة بأزمة اللاجئين. كما وجد الباحثان أن تجريد اللاجئين المسلمين من إنسانيتهم بشكل صارخ هو أعلى بكثير ويرتبط بقوة بالسلوك بين المجموعات في دول أوروبا الشرقية (خاصة جمهورية التشيك) منه في إسبانيا واليونان. من خلال دراسة مجموعة من الأهداف الخارجية خارج نطاق اللاجئين، توضح النتائج بشكل أكبر أن التجريد الصارخ من الإنسانية ليس تحيزاً عرقياً محضاً. في حين يشعر الأفراد عبر السياقات بدفع تجاه مجموعتهم أكثر من غيرهم، فإنهم يصنفون العديد من المجموعات الخارجية ذات المكانة العالية على أنها "متطورة بشكل متساوٍ أو كامل وحضارياً" من الجماعة. يخلص البحث إلى أن نزع الصفة الإنسانية بشكل صارخ يلعب دوراً مهماً ومستقلاً في رفض اللاجئين المسلمين في جميع أنحاء أوروبا.

قياس التجريد من الإنسانية مع "صعود" الأمم

في سلسلة من سبع دراسات، استخدم "كتيلي" Kteily وزملاؤه "آدم ويتز" Waytz Adam الأستاذ المشارك للإدارة والمنظمات في كيلوغ Kellogg، و"إميل برونو" Bruneau Emile من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، و"سارة كوتيريل" Cotterill Sarah من جامعة هارفارد، الرسم التخطيطي المعروف "صعود الإنسان" لتحديد مدى استعداد المشاركين لتجريد الآخرين من إنسانيتهم بشكل صارخ. يعود الرسم التخطيطي، الذي تم تغييره وحتى محاكاته بصورة ساخرة على مر السنين، إلى رسم توضيحي لكتب تايم لايف مراحل في أنهم على تصويرهم تم ظلية صورة في شخصيات خمس ظهر. الستينيات من Time-Life Books مختلفة من التطور الحضاري - من أربعة أرجل منحنية في أقصى اليسار إلى إنسان مستقيم في أقصى اليمين.

في دراساتهم، طلب الباحثون من المشاركين أن يرتبوا حيث تقع المجموعات المختلفة في طيف التطور التطوري.

يقول كتيلي: "إنه بالتأكيد مقياس استفزازي". لكننا أردنا أن نلتقط التجرد من الإنسانية بأوضح العبارات



الممكنة ولا لبس فيها. أردنا التأكد من عدم وجود طريقتين لما يحدث"

شملت الدراسة الأولى 201 أمريكياً. تم عرض مخطط صعود الرجل على هؤلاء المشاركين على جهاز كمبيوتر به 13 جنسية أو مجموعات عرقية ودينية مختلفة مُدرجة، وطلب منهم الإشارة إلى "مدى تطور [هم] في اعتبارهم متوسط عدد أفراد كل مجموعة.

قام المشاركون بذلك عن طريق تحريك شريط التمرير الموجود بجوار كل مجموعة إلى أي نقطة على مقياس صعود الرجل. قام الباحثون بتحويل الردود إلى ترتيب رقمي من 0 إلى 100 حيث يمثل 100 أعلى نقطة في التطور، وهي الصورة الظلية المقابلة للإنسان "الكامل".

في النتيجة احتل الأوروبيون والأمريكيون المرتبة الأولى والثانية بنسبة 91.9 و91.5 على التوالي. كانت ست مجموعات أخرى ضمن نقطتين من ذلك، وبالتالي لا يمكن تمييزها إحصائياً عن الأمريكيين: السويسريون، واليابانيون، والفرنسيون، والأستراليون، والنمساويون، والأيسلنديون. سجلت خمس مجموعات درجات أقل بشكل ملحوظ: الصينيون (88.4)، الكوريون الجنوبيون (86.9)، المهاجرون المكسيكيون (83.7)، العرب (80.9)، والمسلمون (77.6).

يقول كتيبي: "هذه التصورات متطرفة". "لكنهم لا يقتصرون على الهامش، حيث يقود التأثير شخص أو شخصان. كانت أعداد كبيرة جداً من الناس على استعداد لنزع الصفة الإنسانية عن الجماعات الأخرى".

تطبيق التجربة في الدنمارك

أظهرت دراسة دنماركية قامت بها مركز Lundbeck الدنماركي للأبحاث عام 2020، أن الدنماركيين ينظرون إلى المسلمين على أنهم في مرحلة العصر الحجري. تظهر الأبحاث الدولية أن هذا الشكل من التجريد من الإنسانية يولد ضغطاً مضاداً ويمكن أن يؤدي إلى دوامة عنيفة.

قام المركز بقياس درجة استعداد الدنماركيين للقول إن المسلمين أقل تطوراً. في الدراسة، تم استخدام نفس المقياس الذي استخدمه الباحثون المذكورون أعلاه في الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا، والمجر، واليونان، من بين دول أخرى. لذلك تم الطلب من حوالي 1200 دانماركي تم اختيارهم بشكل تمثيلي للعينات المختلفة قراءة التعليمات التالية:

"تسمع أحياناً وجهة نظر مفادها أن الناس يختلفون في مظهرهم البشري. توصف بعض الشعوب أحياناً بأنها



متطورة للغاية، في حين يتم وصف البعض الآخر على أنه لا يمكن تمييزه عن الحيوانات الدنيا. باستخدام الصورة أدناه كدليل وبتحريك المؤشر على المقاييس أدناه، نطلب منك الإشارة إلى مدى تطورك في إدراك العضو العادي في المجموعات المختلفة". ثم وضع المشاركون 14 مجموعة مختلفة على مقياس الصورة المرفقة.

كما يتضح من الشكل، يمكن للمشاركين وضع المجموعات المختلفة من 0 إلى 100، والتي تقابل على التوالي الأقل والأكثر تطوراً فيما يتعلق بالتوضيح المرتبط.

كانت النتائج واضحة: أظهر الدنماركيون علامات واضحة على نزع الصفة الإنسانية كما وجدت الأبحاث السابقة في بلدان أخرى. حيث وضع الدنماركيون المسلمين في مرحلة العصر الحجري.

تم تصنيف الأقلية الدينية "المسلمون" بمتوسط 64 في مرحلة العصر الحجري.

تم سؤال المشاركين عن مجموعات الأقليات العرقية مثل الأتراك والعرب وكان متوسط ترتيب هذه المجموعات: الأتراك 70 والعرب 65.

وللمقارنة، طلب المركز أيضاً من المشاركين في الدراسة وضع المجموعتين "الاسكندنافية" و"الأوروبيين" على نفس المقياس. وبالتالي يمكن اعتبار هاتين المجموعتين ممثلين لتصور الدنماركيين عن مجموعة الأغلبية في المجتمع الدنماركي. وكان متوسط ترتيب "الاسكندنافية" 86، بينما كان "للأوروبيين" 85.

وبالتالي، يُنظر إلى مجموعة الأقلية "المسلمون" على أنها أقل تطوراً بنسبة 25% تقريباً من مجموعتي الأغلبية، ولكن المسلمين أيضاً أقل تطوراً بشكل ملحوظ من الآسيويين - بحسب المشاركين - على سبيل المثال، الذين حصلوا على 76.

هذه الدراسة الدنماركية التي شملت 1200 دنماركي تم اختيارهم تمثيلاً، على الرغم من أنها ليست جزءاً من مقالة منشورة علمياً، ولكن تمت الإشارة إليها في عدد من المقالات العلمية. يذكر المشرفون على الدراسة أنها لا تعبر بالضرورة عن أن غالبية الدنماركيين ينظرون إلى المسلمين على أنهم متخلفون تطورياً ومتخلفون.

ربما استخدم المشاركون المقياس للتعبير عن موقفهم العام تجاه المسلمين (عدم تعاطفهم) معهم. لكن الطريقة التي يتم بها التعبير عن هذا الموقف يمكن أن تحدث فرقاً في الانسجام الاجتماعي.



عندما تُحرم من إنسانيتك كأقلية، فإن ذلك يجلب معه الكراهية والغضب. هذا ما تشير إليه نتائج كثير من الدراسات الدولية.

يجد المركز الذي أشرف على الدراسة صعوبة في معرفة آليات حدوث نفس الديناميكيات والعمليات الأساسية للمجموعة في الدنمارك. بمعنى آخر، كيف نشير إلى بعضنا البعض.

ولكن، بغض النظر عما قد يظنه المرء من تلك العبارات، فإنهم في جميع الحالات يبنون جسراً لغوياً بين المهاجرين والأقليات من ناحية، وأنواع الحيوانات الأقل وتطوراً من ناحية أخرى.

التجريد من الإنسانية

التجريد من الإنسانية هو واحد من ثمانية أشكال "فك الارتباط الأخلاقي" التي وصف من خلالها عالم النفسي الكندي "ألبرت باندورا" Bandura Albert البشر بأنهم قادرين على ارتكاب جرائم فظيعة. لقد طورت الحضارة البشرية أدواتها لمنع العدوان، ولكن لم تقم بإزالة العنف.

يرجع ذلك جزئياً إلى تقنيات خلق الأعذار والتبريرات (الزائفة) للسلوكيات غير الأخلاقية. إن جميع تقنيات فك الارتباط الأخلاقية هي حيل لجعل الناس يقبلون السلوكيات التي قد يعترفون بها على الفور بأنها غير أخلاقية، وغير عادلة. على سبيل المثال، بافتراض أن معظم الناس ليسوا معجبين بإساءة معاملة النساء، يتم استخدام استراتيجيات التجريد من الأخلاق وغير الإنسانية الأخرى لخداع الناس لقبول إساءة معاملة بعض النساء. المتلاعبون يفعلون ذلك لضمان السلطة أو الربح المالي.

تري نظرية فك الارتباط الأخلاقي لباندورا أنه أثناء التطور الاجتماعي، يتم تعزيز السلوك أو المعاقبة عليه من خلال استخدام إجراءات مختلفة، وهي لائحة نخضع لها بمرور الوقت من خلال الاستيعاب عبر التنشئة الاجتماعية. شيئاً فشيئاً. نحن نطور إحساساً بالأخلاق الذي ينظم سلوكنا بناءً على القيم المحددة في طريقة وجودنا. وبالتالي، فإننا نميل إلى التصرف بطريقة تتفق مع معايير السلوك التي استوعبناها، وتنظيمها ذاتياً.

ولكن من الممكن أحياناً أن يقوم الأشخاص بأفعال تتعارض مع هذه القيم والمعايير الداخلية (من أجل الراحة، أو التوافق، أو البقاء، أو أسباب أخرى محتملة) والتي عادة ما تسبب تناقضاً بين ما نفعله وما نفكر فيه. سيؤدي هذا إلى زيادة التوتر الداخلي وظهور الانزعاج الذاتي أمام الأداء نفسه، عند ظهور صراع أخلاقي.

في هذه الحالات، وخاصة عندما يكون الانتهاك انفصلاً قوياً عن معتقداتنا وقيمنا، من الشائع أن يدعو باندورا



الانفصال الأخلاقي الانتقائي، باستخدام آليات دفاع مختلفة لمحاولة إضفاء الشرعية على الإجراءات، على الرغم من تعارضه مع نظامه الأخلاقي الذي يعطل التنظيم الذاتي، ويصبح اللوم الأخلاقي على هذه العناصر غير ذي صلة، ويمكن الدفاع عنه بالنسبة للشخص نفسه.

يحدث هذا الانفصال تدريجياً، بحيث بعد فترة يمكن قبول المزيد والمزيد من السلوكيات التي تعتبر في البداية غير مقبولة، أو سخيفة، أو قاسية، أو حتى إجرامية. وبالتالي، فإن مفهوم الذات محمي ولا تظهر عملية التنظيم الذاتي المعتادة، حيث يتم استخدام آليات دفاعية مختلفة.

تستند هذه النظرية إلى فكرة أن التفاعل بين السلوك والتفكير يتأثر بعمق بالعوامل البيئية والشخصية والسلوكية، كما تتأثر الأخلاق أيضاً بتأثير الإدراك والعواطف والتفاعلات الاجتماعية. نظرية باندورا للانفصال الأخلاقي، كما رأينا في المقدمة، قابلة للتطبيق في جميع أنواع المواقف: من البسيط والتافه، إلى جرائم الحرب الكبرى. من الواضح أنه كلما زادت صعوبة الفصل بين السلوك والأخلاقي، زادت صعوبة التطبيق، وزادت الحاجة إلى الاستخدام المكثف للآليات الدفاعية، والتي تمنع تدمير الذات ومفهوم الذات.

انتعاش الشعبوية

جاء في تقرير الشبكة الأوروبية لمكافحة العنصرية "إنار Enar" لعام 2021 أن نبرة معاداة طالبي اللجوء والمهاجرين تزداد حدة في أوروبا، حيث تنشر الجماعات والأحزاب الشعبوية واليمينية المتطرفة أفكارها بشكل واسع، خصوصاً عبر وسائل التواصل الاجتماعي. وذكر التقرير أن عدد المظاهرات والاحتجاجات تكشف قوة تأثير الجماعات اليمينية المتطرفة فيما يخص نشر تصوراتها المعادية للإسلام، وطالبي اللجوء والمهاجرين في أوروبا.

وثقت الشبكة تصريحات لسياسيين منتخبين من دول مثل رومانيا، وسلوفينيا، والمجر، تحمل الكثير من العداء للأجانب. أما الخطابات النارية المعادية خصوصاً للمهاجرين المسلمين فلها مواطن كثيرة في دول الاتحاد الأوروبي. في بولونيا، وكرواتيا حصلت الأحزاب التي تحمل أفكاراً عنصرية أكثر من 30% من أصوات الناخبين. وكانت هذه النسب بحدود 20% في كل من النمسا، والدنمارك، والمجر. فيما لا تجد هذه الظاهرة انتشاراً واسعاً في إسبانيا مثلاً، حسب تقرير الشبكة.

حقائق مقلقة

التاريخ مليء بأمثلة عن كيفية تجريد الناس من إنسانيتهم من أعراق، أو ديانات، أو خلفيات عرقية مختلفة. نفكر في حقيقة أن العبيد في الولايات المتحدة كانوا يُحسبون على أنهم ثلاثة أخماس الشخص عند تحديد



التمثيل في الكونجرس، أو أن النازيين أشاروا بشكل روتيني إلى فئات عرقية معينة على أنهم "حشرات".

لقد اتسم النقاش الدائر في السنوات العديدة الماضية حول اندماج الأقليات في الدول الأوروبية، بالنقاش حول المحتوى السياسي الفعلي لهذا النقاش، وحوّل لهجة النقاش، أي الطريقة التي يتم الحديث بها عن المهاجرين.

تعتبر نتائج هذا المشروع بمثابة تذكير عاجل بأن التمييز الحقيقي مستمر ويساهم في العنف السياسي والمجتمعي. بعبارة أخرى، فإن التجريد من الإنسانية يؤدي إلى دوامة مفرغة لا تؤدي إلا إلى تفاقم إمكانية حل المشكلات الفعلية التي قد توجد فيما يتعلق بالهجرة والاندماج. إن الضغط يولد الضغط المضاد. عندما تعبر مجموعة الأغلبية عن أن الأقليات أقل تطوراً، تستجيب الأقليات من خلال إدراك الأغلبية السكانية بنفس الطريقة.

إن الحقيقة القائلة بأن التجريد الصارخ من الصفة الإنسانية تجاه مجموعات معينة في عدد من الدول، هو أمر حقيقي وواسع الانتشار، وهو أمر مثير جداً للقلق أيضاً. يتطلب الأمر منا أن نسأل، كيف يمكننا تجاوز هذه التصورات المقلقة للغاية وتحسين المواقف والسلوكيات بين المجموعات المختلفة؟

* كاتب وباحث فلسطيني مقيم في الدنمارك

مصادر

- Backlash: The Politics and Real-World Consequences of Minority Group Dehumanization' (2016). Personality and Social Psychology Bulletin. DOI: <https://doi.org/10.1177/0146167216675334>

- The ascent of man: Theoretical and empirical evidence for blatant dehumanization' (2015). Journal of Personality and Social Psychology. DOI: <https://psycnet.apa.org/doiLanding?doi=10.1037/pspp0000048>

- The unique effects of blatant dehumanization on attitudes and behavior towards Muslim refugees during the European 'refugee crisis' across four countries'. (2017) European Journal of Social Psychology. DOI: <https://doi.org/10.1002/ejsp.2357>
<https://insight.kellogg.northwestern.edu/article/the-danger-of-dehumanizing-others>